

الفصل: الرابع

## وحدة: تاريخ أوروبا في القرنين 19 و 20

الأستاذة: محمد حبيدة

المحاضرة رقم: 6

السنة الجامعية

2021-2020

جامعة ابن طفيل	السنة الجامعية: 2021-2020
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية	وحدة: تاريخ أوروبا في القرنين 19 و20
شعبة التاريخ والحضارة	الأستاذ: محمد حبيدة
الفصل الرابع	المحاضرة رقم: 6

## الحملة على روسيا 1812

اعتبر نابوليون السيطرة على ألمانيا، وعلى مملكة بروسيا، تمهيدا للذهاب بعيدا باتجاه الشرق للهجوم على روسيا. على مستوى القارة، خضعت كل البلدان لفرنسا، من إسبانيا إلى ألمانيا، ومن إيطاليا إلى بلجيكا، ومن هولندا إلى النامسا وبولندا، إذ لم تبق سوى روسيا التي كان يحكمها الإسكندر الأول. كان نابوليون يسعى إلى إقناع قيصر روسيا بقطع صلاته التجارية مع بريطانيا. لكن الرُّوس تخوفوا من السياسة التوسعية الفرنسية، فاستمروا في التعامل مع البريطانيين إذ فتحوا موانئهم للتجارة معهم. هذا ما دفع نابوليون إلى اتخاذ قرار الهجوم على روسيا، بالرغم من تحذيرات الدبلوماسيين الفرنسيين العارفين بشؤون روسيا. جهز نابوليون جيشا من 450.000 جندي، مكون من مختلف الجنسيات، عُرف باسم "الجيش العظيم"، استعدادا لشن حرب على روسيا، كانت من أشد الحروب دمارا ودموية في التاريخ الأوروبي، وذلك سنة 1812. وقد اتخذت المعركة التي جرت بين الطرفين تسميتين مختلفتين:

معركة موسكوفا (Moscov) بالنسبة للفرنسيين

معركة بورودينو (Borodino) بالنسبة للرُّوس

استطاع جيش نابوليون هزم جيش الإسكندر الأول، والدخول إلى موسكو. وكان رد فعل الرُّوس أن هجروا مدينتهم وأحرقوها وتركوا نابوليون في حيرة من أمره لا يعرف ما يصنع في موسكو. فكل القيادة الروسية انتقلت إلى مدينة سان بيترسبورغ. كان الشهر شهر أكتوبر، وكان الرُّوس يراهنون على مجيء فصل الثلوج لشن هجوم مضاد على جيش نابوليون. وفي انتظار لحظة الحسم، انتظم الرُّوس بقيادة الجنرال ميخائيل كوتوزوف الذي حمل اسم جنرال الثلج والجليد، وشنوا هجوما على الفرنسيين وقت تساقط الثلوج، فمات منهم النصف، أي ما يفوق 200.000 جندي بسبب قطع الإمدادات وتفشي البرد القارس.

انهزم الجيش الفرنسي في نهاية المطاف. كان كوتوزوف يرغب في إلقاء القبض على نابوليون، لكن هذا الأخير تمكن من الهرب صحبة صحبة ضباطه الكبار، والرجوع إلى باريس. لكن الأهم كان قد تحقق، إذ شكلت هذه الهزيمة بداية لتراجع قوة نابوليون في أوروبا. وفي المقابل، اكتسبت روسيا قيمة كبيرة في المنتظم الأوروبي، إذ انا باحتلالها لواجهة التحولات التي عرفتها القارة فيما بعد.

كانت الحرب الفرنسية-الروسية فظيعة لا توازيها سوى الحرب على هيتلر إبان الحرب العالمية الثانية، عندما تكرر سيناريو الجوع والموت من شدة البرد. هذا ما تذكره الوثائق المحفوظة في مستودعات الوثائق بباريس وموسكو، وأيضاً الرسائل والمذكرات التي تبقى مصدراً رئيسياً لفهم المآسي الكثيرة التي تسببت فيها هذه الحرب بالنسبة للعسكريين والمدنيين على السواء. في البداية، كان ضباط "الجيش العظيم" على قناعة كبيرة بمجدوى هذه الحرب التي كان من شأنها، في نظرهم، أن تجلب إليهم المجد. يقول ضابط بولندي شارك في هذه الحرب، في مذكراته:

"منذ الأحداث العسكرية الأخيرة، استعاد الضباط الشباب الثقة في نجمة نابليون. حتى لو قال لهم: هيا يا ضباط، عليكم بغزو القمر، استجابوا، وقالوا: سمعنا وطاعة! لم نكن نحلم سوى بالمعارك والانتصارات.. لم نكن نخشى إلا مبادرة الروس للسلم وتفادي القتال".

كان ذلك مجرد حلم، لأن الواقع كان أقوى وأشد، وكانت المآسي أكثر مما تصوره هؤلاء الضباط، إذ سرعان ما واجه الجنود تضاريس مخيفة وطرقا وعرة وأجواء مناخية قاسية، وخيم العياء على الأجسام من شدة المشي وقلة النوم. ثم إن الأقوات صارت تقل مع مرور الوقت، ففتر الحماس، ولاح الموت في الأفق، حتى أن بعض الجنود بكوا من الغم الذي خيم على الحرب. هذا ما ترويهِ المذكرات. نقرأ في مذكرة أحد حرس نابليون: "كانت الأرض غارقة في الدم، وكنا نمشي فوق الجثث".

وإلى جانب المذكرات، أسالت هذه الحرب مدادا كثيرا بقلم مؤرخين وسياسيين وصحفيين كتبوا عن هذه الحرب وتفاصيلها وتناججها. نذكر من هذه الدراسات مؤلفين، واحد كلاسيكي ألفه عام 1949 لويس مادلان تحت عنوان "كارثة روسيا"، والثاني حديث الصدور (2012) لماري بيار ري، "المأساة المخيفة: قراءة جديدة في تاريخ الحملة على روسيا".

Louis Madelin, *La Catastrophe de Russie*, Hachette, 1949.

Marie-Pierre Rey, *L'Effroyable Tragédie : Une nouvelle histoire de la campagne de Russie*, Paris, Flammarion, 2012.

في كتاب المؤرخة الفرنسية المتخصصة في تاريخ روسيا، ماري بيار ري، الذي صدر بمناسبة مرور قرنين على الحدث، والذي استند إلى وثائق كثيفة، روسية وفرنسية، وتناول الموضوع بمقاربة جديدة تقضي بتقاطع الرؤى، الروسية والفرنسية، وحتى رؤى الأوروبيين الآخرين الذين شاركوا في المعركة، يجد القارئ ضالته. تتبعت الباحثة فصول الحملة (الدخول إلى التراب الروسي، معركة بورودينو، احتلال موسكو، إحراق المدينة، بسالة الروس، التراجع، الهزيمة)، لتخلص إلى أن هذه الحرب شكلت "مأساة بشرية ضخمة". ومن جهة أخرى، شددت

الباحثة على "نشأة الشعور الوطني الروسي"، كون أن أحداث شتبر-أكتوبر 1812 كانت بحق منطلقا للأمة الروسية.

وبالإضافة إلى المذكرات والدراسات أغرت الحملة على روسيا قلم وريشة الأدباء والفنانين من مختلف الأقطار. وتبقى رواية الأديب الروسي ليون تولستوي "حرب وسلم"، الصادرة أول الأمر في شكل فصول بين عامي 1865 و1869، من أهم ما كُتب في هذا الشأن، إذ يعتبرها الأدباء والنقاد من أروع الروايات في تاريخ الأدب العالمي بفضل غنى المشاهد وواقعتها والتوصيفات النفسية الهائلة التي ميزت فقرات كثيرة من هذا العمل الأدبي.

### واتيرلو ومؤتمر فيينا 1815

يسمي الفرنسيون المعركة التي انهزم فيها نابوليون، يوم 18 يونيو من عام 1815، بـ معركة "مون سان جون" (Mont Saint Jean)، وهو موقع في بلجيكا (جنوب بروكسيل)، فيما ينعتها الألمان بـ "التحالف الجميل". أما البريطانيون فيسمونها "واتيرلو" (Waterloo) وهو اسم القاعدة العسكرية التي كان يربط بها جيش التحالف المكون من بريطانيا وبروسيا وهولندا وبلجيكا، بقيادة الجنرال البريطاني آرثر ويلنغتون (Wellington). علما بأن هذا التحالف قد تكوّن بمقتضى اتفاق حصل في مؤتمر فيينا في مارس 1815.

وبغض النظر عن تفاصيل المعركة التي انهزم فيها جيش نابوليون، بخطة محكمة من جيوش التحالف المذكور، يمكن القول إنها أنهت سلسلة الحروب الطويلة والمدمرة التي جرت ببلدان عديدة من القارة الأوروبية، وأوقعت نابوليون في قبضة البريطانيين الذين حبسوه في جزيرة سانت هيلين البركانية بعرض المحيط الأطلسي بين إفريقيا والبرازيل.

أسالت معركة واتيرلو الكثير من المداد خلال القرن التاسع عشر، ليس فقط من طرف الفاعلين المباشرين (مذكرات)، والمؤرخين (مؤلفات في شكل دراسات توصيفية أو تحليلية)، بل أيضا بريشة عدد من الفنانين وقلم أدباء مشهورين، في مقدمتهم فيكتور هوغو الذي أبدع أشعارا في ديوانه "العقوبات" (1853) أثار فيها هذا الحدث، وإميل إريكمان الذي كتب عام 1865 رواية بعنوان "واتيرلو" مجّد فيها "الواجب الوطني".

أما الدراسات الجامعية التي تناولت موضوع واتيرلو فلا تعد ولا تحصى، سواء تلك التي أنجزها الفرنسيون أو البريطانيون أو الألمان وحتى الأمريكيين. وقد أشرنا إلى بعضها في لائحة المراجع. وبرأينا تبقى دراسة المؤرخ البريطاني أندرو روبيرتس (واتيرلو: رهان نابوليون الأخير) من أهم هذه الدراسات من حيث النظرة إلى

الأمر. يرى روبرتس أن واتيرلو هي التي فتحت الباب أمام القرن التاسع عشر مع النظام الأوروبي الجديد الذي فرضه مؤتمر فيينا، والذي سهرت عليه بريطانيا. ومعنى ذلك، وفق مقارنته الأنجلوساكسونية الصرفة، أن هزيمة نابليون وضعت حدا للقرن الثامن عشر الطويل الممتد ما بين الثورة الجليلة الإنجليزية (1689) وحدث 1815، حيث كانت قيم الفروسية ما تزال تحافظ على أهميتها في سلوك الجنود على الرغم من التقدم الحاصل آنذاك في ميدان المدفعية.

ومن الجانب الفرنسي، يمكن الاحتفاظ بهذه المعركة من زاوية الذاكرة كما أبانت عن ذلك دراسات كثيرة، انطلاقاً من مفهوم "موقع الذاكرة" على النحو الذي يظهر في المؤلف الضخم الذي أشرف عليه بيار نورا "مواقع الذاكرة" (1984-1992). كيف تشكلت ذاكرة واتيرلو من خلال رصد ما خلفه الفاعلون السياسيون والاجتماعيون المرتبطون بالحدث؟ وكيف غدّى هذا الحدث هوية الفرنسيين بتأويله على طريقتهم الخاصة؟ من هذا المنظور، تظهر فائدة دراسة الحرب ليس من باب تفاصيل ساحة الوغى، بل بالأحرى بالتركيز على وظيفة التمثيلات عوض الوقائع. ولذلك، تبدو الهزيمة وكأنها تبرر تساؤلات تكميلية ذات صلة بالتعبير عن ما يسميه الباحث الفرنسي جون مارك لارجو في دراسته "واتيرلو في ذاكرة الفرنسيين: 1815-1914" (2001) بـ "الهزيمة المجيدة" بالحفر في العلاقات الموجودة بين الهزيمة والمخيال الاجتماعي، ونشأة وتطور المشاعر الموصوفة بـ "الوطنية". ومن الوجهة الجيوسياسية، كان حدث واتيرلو محطة جديدة في تاريخ أوروبا. فقد بادرت الدول الأوروبية المعادية لفرنسا بالدعوة إلى مؤتمر أوروبي للبحث في سبل طي صفحة نابليون وفتح صفحة جديدة كتبت بريطانيا عناوينها بحروف بارزة. هذا ما حصل في مدينة فيينا ما بين شهري سبتمبر 1814 ويونيو 1815. كان مؤتمر فيينا حدثاً سياسياً غير مسبوق في تاريخ القارة الأوروبية، كونه أكبر تجمع سياسي ودبلوماسي من نوعه إلى ذلك الحين. كانت الغاية التي سطرها بريطانيا هي العودة بأوروبا إلى وضع ما قبل الثورة الفرنسية (1789) وتثبيت دعائم الأنظمة الملكية بالتأكيد على شرعية السلالات الحاكمة، وإحلال السلام في أرجاء القارة.

هيمن على المؤتمر ما يعرف بالتحالف الرباعي المنتصر على نابليون: بريطانيا وممثليها الجنرال ويلنغتون، وروسيا وقيصرها الإسكندر الأول، وبروسيا ووزير خارجيتها كارل هاردنبيرغ، والنامسا ووزير خارجيتها ميتزنيخ. ومن الجانب الفرنسي حضر وزير الخارجية شارل موريس تاليراند. على الرغم من هيمنة التحالف الرباعي على المؤتمر ورغبة الدول الأوروبية إخضاع فرنسا، فإن هذه الأخيرة خرجت بأخف الأضرار من هذا المؤتمر بفضل حنكة تاليراند الذي عرف كيف يمتص غضب هذه الدول حفاظاً على وحدة بلاده الترابية. وتحكي المذكرات التي كتبها المشاركون في المؤتمر كيف أن وزير الخارجية الفرنسي استطاع، من خلال الموائد التي كان يسهر على تحضيرها

أحد الطبّاحين المهرة، وهو أنطوان كاريم، تلطيف الأجواء وتحقيق مكاسب هامة في وجه الدبلوماسية "الشرسة" للبروسيين والرُّوس الذين قسّموا بولندا فيما بينهم. كان تاليران قد استخدم سحر الطبخ الفرنسي "سلاحاً دبلوماسياً هائلاً"، بتعبير المؤرخ روبرت فرانك المختص في تاريخ العلاقات الدولية، مما مكن من تفادي "سلام مهين".

وبصفة عامة، كرس المؤتمر هيمنة بريطانيا على أوروبا والعالم، لكنه ضمن سلماً نسبياً خلال القرن التاسع عشر، لم يختل اختلالاً كبيراً إلا مع اندلاع الحرب العالمية الأولى في مطلع القرن العشرين. فقد استغلت بريطانيا ظروف السلم النسبي هذه لمواصلتها إقلاعها الاقتصادي وتقوية أسطولها الملاحى والتجاري وإحكام قبضتها على بقاع شاسعة من العالم (كندا وأستراليا والهند وإفريقيا الجنوبية). وبذلك، صارت الإمبراطورية البريطانية تتوفر على أكبر جيش في العالم، وأكبر أسطول ملاحى، وأكبر شبكة حديدية (11.000 كلم)، وأكبر اقتصاد باحتكار 90 بالمائة من الإنتاج العالمى من النسيج و75 بالمائة من إنتاج الفحم الحجري. كما صار بنكها القومى، الذى كان قد رأى النور عام 1694، يتوفر على أعلى المدخرات فى العالم ويشرف على 700 مؤسسة مصرفية و600 شركة. حصل هذا بالموازاة مع النمو المتصاعد للمدن، وخاصة مدينة لندن التى بلغ عدد سكانها مليونى نسمة لتكون أكبر مدينة فى العالم خلال القرن التاسع عشر. لكن ما ميّز التمدّن فى بريطانيا فى هذا القرن هو ظهور ما يعرف بـ "الكوكتاونز" (المدن السوداء: الآلات والمداحن العالية) التى كتب عنها الكثير من الكتاب، أبرزهم الروائى الإنجليزى تشارلز ديكنز فى روايته "أوقات عصيبة" (1854)، حيث تظهر ملامح النظام الرأسمالى القائم على استغلال العمال استغلالاً فاحشاً، وتلوّث البيئة تلوّثاً مفرطاً، على النحو الذى يظهر فى مدينة مانشيستر ومدن أخرى كثيرة.